صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

البترول... أم الديمقراطية؟!

أ.د. قاسم حسين صالح

المشهد النفسي

كلما قرأت عن البترول ازددت يقيناً بأننا متخلفون في فهمنا حقيقة الأمور بمقدار نصف قرن عن أقراننا في الغرب من ذوي التفكير المتوسط، دع عنك الشياطين في الذكاء، واليكم الدليل: في (١٠) أيلول من العام ١٩٤٣م رفع (هارولد ايكس) المختص بشؤون البترول تقريراً إلى الرئيس الأمريكي (روزفلت) جاء فيه: ((إن الحضارة مرت بأربعة عصور هي: الحجري، والبرونزي، والحديدي، وأخيرا البترول. وأن أمريكا من دون البترول لا يمكن أن تكون بالشكل الذي هي عليه)).

وفي الأربعينيات أيضاً، وتحديدا في العام ١٩٤٥م، قال (جورج والدن) رئيس شركة بترول أمريكية كبرى: ((إن إدارة شؤون البترول تختلف عن إدارة شؤون أية سلعة أخرى، من حيث أن ٩٠٪ منها سياسية و١٠٪ منها بترول!)). وأضاف ما صار بعد ذلك نبوءة: ((إذا كان الأمر يحتم على أمريكا أن تدير شؤون البترول في العالم، فإن عليها أن تفعل ذلك حتى خارج حدود سيادتها الإقليمية، وخارج القانون الدولي إن تطلب الأمر)).

وكان البترول هو الذي أنطق لسان أمريكا لتقول لحكومة التاج البريطاني قبل نصف قرن:((كش ملك)) فأزاحتها من هيمنتها على بترول العرب. وفي ذلك قال رجل القرن العشرين البريطاني((تشرشل)): ((إنني مضطر إلى أن أصارحك القول (يخاطب روزفلت) بأن سياسة الولايات المتحدة بشأن بترول الشرق الأوسط تبدو لنا في مجلس الوزراء البريطاني محاولة لأن ترثوا تركة رجل لا يزال على قيد الحياة!)).

وكانت الخطوة الحاسمة لأمريكا أن قامت بتصفية ثورة مصدق في العام ١٩٥٣م، فأخذت شمس بريطانيا بالغروب وبدأت شمس أمريكا بالطلوع على بترول الشرق الأوسط. وصار القرن العشرون- كما وصفه بوش الأب - قرناً أمريكياً. وحمل ابنه (أمانة) أن يكون القرن الواحد والعشرون أمريكياً أيضاً، وقد وفى الابن وكفى ، وسيحمل الأمانة لمن بعده في لعبة بريد إلى أن يجف البترول في العالم.

ومنطق السياسة يقول، إن الدولة الأقوى في العالم لا تضمن ديمومة تفردها إلا بضمان ديمومة سيطرتها على البترول. وما دام حكام العرب بين: لاهين وساهين ومقامرين وطائشين ومهووسين بالجنس وملء البطون.. فلا بأس في أن تعيش الدولة الأولى في العالم على بترولهم نصف قرن آخر سيصل فيه سعر البرميل الواحد مئة دولار في عشرته الأولى!

كل ذلك منطقي من حيث تفكير دولة عظمى، برغم أن لا أخلاق في السياسة. ومنطقي أيضاً أن تقولوا لنا يا سادة يا كرام: إنكم أطحتم بأعتى دكتاتور و أقسى طاغية. وأن على الإنسانية أن تقول لكم (شكراً)، وعلى العراقيين أن يرفعوا لكم قبعاتهم.. أعني(عكلهم- جمع عقال). كل ذلك منطقي، لكن أن تقولوا إن عملكم هذا كان من أجل الديمقراطية، وأن تضحياتكم كانت لسواد عيون العراقيين، فهذا قول ما عاد يصدقه حتى السفهاء.

قولوا: نعم جئنا من أجل البترول، ضربنا مئة عصفور بحجر واحد وما فلت منها واحد، و(هنيئاً لكم وبالعافية عليكم).

قولوها ولا تخجلوا، فالعراقيون صاروا على يقين بأنكم لن تأخذوا من البترول ما أخذه الدكتاتور، ولن تهدروه كما هدره. خذوا منه حتى النصف، فالعراقيون مقتنعون من ألف عام بأن((منهوب النص ما هو منهوب!)).

نكرر، خذوا من البترول ما شئتم أيها السادة. ولكن أن تكرروا القول على الناس أنكم فعلتم ذلك من أجل الديمقراطية، فإنهم سيصبون النفط عليها ويحرقونها!

حسب تقارير لمنظمات عربية ودولية

انتهاكات حقوق الإنسان العراقي نهج ثابت لدى الجيش الأمريكي

> العنف الذي يتعرض له الإنسان في (العراق الجديد)، بات ظاهرة متعددة الأسباب والأشكال والغايات. فلدينا اليوم العنف الأمريكي، وعنف الدولة، وعنف التنظيمات السرية المسلحة بكل أنواعها السياسية والدينية، فضلاً عن العنف الاجتماعي التقليدي بين أبناء المجتمع الواحد. ويتهم كل طرف الأطراف الأخرى ببدء هذا العنف، في دورة مفرغة من تجريم (الآخر) بوصفه مقترفاً أقصى حدود (الذنب)، فما عاد ينفع معه غير الإفناء أو الكي في أحسن الأحوال! أما وقود هذه الممارسات وحطبها، فهو المواطن المسالم الذي يسعى بأقصى جهده لينأى بنفسه عن دموية هذه الصراعات التي لا يجد لها معنى لا في قاموسه الحياتي اليومي، ولا في منظوماته القيمية والفكرية.

ولتقصي ممارسات العنف البدني الذي يمارسه الجيش الأمريكي ضد العراقيين، زارت العراق خلال العامين الماضيين عدة بعثات لـ (المنظمة الدولية لمراقبة حقوق الانسان —هيومن رايتس ووتش)، ولـ(منظمة العفو الدولية) و(المنظمة العربية لحقوق الإنسان). وبناء على هذه الزيارات، أصدرت هذه المنظمات تقارير مهمة تغني النقاشات الدائرة بشأن أوضاع حقوق الإنسان العراقي في ظل الاحتلال ابتداء من آذار ٢٠٠٣م. وفيما يأتي أبجاز مكثف بأهم الملاحظات والحقائق التي اتفقت عليها هذه التقارير:

الأسلحة المحرمة دولياً

كان أول ما لفت نظر هذه المنظمات الإنسانية، ذلك الاستخدام المفرط لأنواع من الأسلحة المحرمة دولياً، والتي لم يقتصر تأثيرها المدمر على العسكريين وحدهم إنما امتد كذلك ليصيب أعدادا كبيرة من المدنيين، ومنها القذائف العنقودية التي استخدمت على نطاق واسع من القوات الأميركية والبريطانية في بداية الحرب، باحتوائها على المئات من القنيبلات الصغيرة التي تنتشر عند انفجارها على نطاق واسع، محدثة قتلاً كبيراً في صفوف المدنيين. وبحسب القيادة الوسطى الأميركية فإن قواتها استخدمت (١٠٧٨٢) قذيفة عنقودية كانت تحتوي على (١,٨) مليون قنيبلة في الأقل.

انتهاك الحق في الحياة

مارست القوات الأمريكية انتهاك حق الحياة على نطاق واسع في العراق، متمثلة بأعمال القتل العمد، والقتل الناتج عن تعذيب المحتجزين المشتبه في بعلاقتهم بالمقاومة أو إساءة معاملتهم، وكذلك القتل الخطأ خاصة على حواجز الطرق لدى عبور السيارات التي يتم إطلاق النيران عليها عشوائياً ما يؤدي لمقتل جميع ركابها في العادة. كما أفاد ناشطون حقوقيون وسياسيون بقيام جنود الاحتلال بإثارة الفزع ليلاً بين السكان خلال دورياتهم الليلية في المناطق السكنية الهادئة، من خلال طرق الأبواب والنوافذ، وإطلاق النار العشوائي على المارة في الظلام بهدف إجبار المواطنين على التزام مساكنهم ليلاً.

إهانة المواطنين

تمثل قضية أساليب تعامل الجندي الأميركي مع المواطن العراقي التي تميزت بما اسمته منظمة (هيومن رايتس ووتش) بمنهج (رامبو) الذي يعتمد الغطرسة والتعالي، أحد مظاهر انتهاكات حقوق الإنسان العراقي. ومن الأمثلة التي استشهدت بها هذه المنظمات وضع الجنود الأمريكان أرجلهم فوق رؤوس العراقيين الذين يوقفونهم للمساءلة قبيل اعتقالهم، وكذلك تفتيش المجندين الأمريكان الذكور المواطنات العراقيات ولمس أجسامهن بطريقة مهينة لكرامة ومشاعر الإنسان العراقي ذكرا كان ام أنثى.

انتهاك الحق في الحرية والأمان الشخصي

يعد الحق في الحرية والأمان الشخصي أوسع الحقوق التي تنتهكها قوات الاحتلال الأمريكي بصفة خاصة وبشكل يومي. وطبقاً للشهادات العديدة، التي تلقتها بعثات المنظمات، تشمل ممارسات القوات الأمريكية قدراً كبيراً من الإهانة والإذلال والعنصرية. ويعانى العراقيون بصفة خاصة عمليات الدهم التي تتسم بقدر كبير من العشوائية، إذ تضم عادة عدة منازل متجاورة، وتشمل ترويع النساء والأطفال والشيوخ، وتتم بناء على الاشتباه أو الوشاية عن أفراد يعتقد أن لهم علاقة بالجماعات المسلحة، وتبدأ غالباً باقتحام إحدى الدبابات الأمريكية باب البيت الخارجي، مترافقاً معها عملية إنزال جنود من الطائرات المروحية فوق أسطح المنازل، تتبعها عملية تفجير الأبواب بمواد ناسفة تستعمل معها قنابل صوتية. ثم تبدأ عمليات تفتيش عنيفة لأرجاء المنزل تؤدى إلى تدمير قدر كبير من المحتويات والمنقولات، تترافق مع جمع النساء والأطفال كافة في إحدى الغرف، مع إلقاء القبض على الرجال والصبية القاطنين بالمنزل. وتقييد أيديهم إلى الخلف بالقيود البلاستيكية المسننة ووضع الأكياس السود على رؤوسهم وإجبارهم على التمدد على الأرض في الطريق العام أمام المنزل ريثما تنتهي عملية التفتيش، والتي تشمل التفتيش الدقيق للنساء والأطفال بما في ذلك الأطفال الرضع، ولا تنتهي قبل مصادرة الأموال والمنقولات الثمينة المملوكة للعائلة، فضلاً عن جميع أوراق الهوية وشهادات الجنسية كافة، ونقل الرجال والصبية المقبوض عليهم في عربات مدرعة إلى أحد مراكز الاحتجاز الأمريكية.

معاملة السجناء والمحتجزين

يجري احتجاز المعتقلين في سجون أبي غريب، والمطار، وأم قصر والناصرية، والرضوانية وغيرها من أماكن الاعتقال التي أحدثتها سلطة الاحتلال، وسط ظروف بالغة الصعوبة وغير إنسانية، إذ يتم الزج بالمقبوض عليهم في خيم مقامة في العراء وسط مناخ شديد القسوة. وتوضع المعتقلات من النساء في زنازين متهالكة وغير نظيفة، ويحرم الجميع الغذاء عدة أيام وبعدها يقدم لهم طعام غير صالح للاستهلاك الآدمي، وتعطى لهم كميات قليلة من المياه ويقضي المعتقلون حاجاتهم في مراحيض بلاستيكية مكشوفة. وأشار بعض المحتجزين إلى أن عمليات تعذيب قد جرت لهم، مثل إلقائهم في مياه مثلجة أو إجبارهم على السباحة في ساعات متأخرة من الليل، أو السباب والضرب المبرح في أماكن حساسة. كما يبقون معصوبي العينين باستخدام الأكياس السود الكبيرة فوق رؤوسهم، ولا يسمح لهم بقضاء حاجتهم إلا تحت سمع وبصر الحراس. وتحتجز النساء والفتيات — ومن بينهن قاصرات —في سجون لا تخضع لإدارة وإشراف شرطة نسائية. وتفيد بعض الروايات أنه تم عرض بعض الفتيات عرايا أمام ذويهن كجزء من عملية الإذلال الماس بكبرياء الجانبين. وقداستمعت بعض هذه البعثات إلى شهادات حول تعرض بعض النساء المعتقلات لاعتداءات جنسية متنوعة.

وتعانى السجون الكبيرة وأهمها سجن أبو غريب - أكبر سجون العراق - اكتظاظا ضخما في عدد السجناء، وبصفة خاصة المعتقلين (الأمنيين) الذين يشغلون ثلاثة أرباع السجن. وتغيب بشكل شبه تام الرعاية الصحية اللازمة، ويؤدي التكدس ونقص احتياجات النظافة إلى انتشار الأمراض ويهدد بانتشار الأوبئة. ويتم تشغيل موسيقى صاخبة عالية الصوت لمنع الراحة والنوم لمدد طويلة. ويتعمد حراس السجون الأمريكيين في بعض الأحيان فتح أبواب الغرف التي يمارسون فيها التعذيب خلال التحقيقات لإسماع بقية المعتقلين صراخ زملائهم. وغير مسموح لأي من المعتقلين الأمنيين بتلقي زيارات المحامين أو الأقارب، وصلاتهم مقطوعة بالخارج نهائياً. ولا يتمكن أفراد الأسرة الواحدة المعتقلين معاً من الاطلاع على أحوال ذويهم المعتقلين معهم. ويتعامل بعض الحراس الأمريكيين مع المعتقلين بعنصرية كبيرة، ويتمنون لهم الموت باعتبارهم كائنات لا تستحق الحياة. ويتم في بعض الأحيان إطلاق المعتقلين مقيدين ومعصوبين في الطريق العام ومن دون متعلقاتهم الشخصية وبثياب السجن مما يعرضهم لمخاطر جمة. ولا يتسلم المعتقلون عند الإفراج عنهم منقولاتهم، خاصة الثمينة منها مثل الأموال وحلي النساء المصادرة خلال الدهم، فضلاً عن ضياع الأوراق الثبوتية الخاصة بهم وبذويهم. ويبلغ المترجمون العراقيون المعتقلين قبل الإفراج عنهم بضرورة توجيه الشكر إلى قائد السجن الأمريكي عن حسن المعاملة في الاحتجاز وعدم السؤال عن المتعلقات الشخصية، وإلا أعيدوا للاحتجاز.

انعدام المساءلة القانونية

يعد انعدام المساءلة القانونية من المظاهر الرئيسة لانتهاك حقوق الإنسان العراقي، إذ إنه ووفقاً للأمر التنظيمي رقم (١٧) لسلطة التحالف المؤقتة: ((لا يجوز للمحاكم العراقية مقاضاة جنود التحالف)). هذا النص جعل كل الادعاءات المتعلقة بالإفراط في استعمال القوة وأعمال القتل الخطأ والقتل غير المشروع ومحاسبة القادة والجنود عن ذلك، أمراً غير خاضع لجهة محايدة بل تقوم به الجهات نفسها المتهمة بارتكاب مثل هذه الأعمال. وذلك كما يقول الخبراء القانونيون لمنظمات حقوق الإنسان خلق مناخ من الحصانة شعر من خلاله الكثير من الجنود الأمريكان والبريطانيين أن بمقدورهم الضغط على الزناد من دون الخضوع لأية محاسبة أو مراجعة.

كانت تلك صور ولقطات من الألم العراقي المفتوح أبداً لشهية الدكتاتوريات والاحتلالات وجماعات العصاب السياسي. ولعل الدم العراقي بات وضوءاً متيسراً لكل من يريد أن يختصر الطريق إلى جنانه، في السماء وعلى الأرض!

سيكولوجية التحول إلى الجنس الآخر!

سناء محمد حيدرة - جامعة أسيوط

نشرت إحدى الصحف خبراً غريباً مضمونه أن زوجين في بريطانيا أجريت لهما عمليتان جراحيتان للتحويل إلى الجنس الآخر، فتحول الرجل إلى أنثى، والزوجة إلى ذكر. وقد تم إعادة الزواج مرة أخرى بصورة معكوسة ليكون الزوج هو الزوجة، وبالعكس. كما أوردت الصحف خبراً يقول أن هيئة التأمين الصحي في بريطانيا NHS قبلت إجراء عمليات التحويل على نفقة الدولة للراغبين في التحول من ذكور إلى إناث أو العكس لحل مشكلة هذه الحالات. وقبل أن تزيد دهشتنا من هذا الكلام سندخل مباشرة في الموضوع.

اضطراب الهوية .. كيف ولماذا؟

(الهوية الجنسية) Gender Identity هي تعرف الواحد منا على نفسه، إما ذكر وإما أنثى. ويحدث ذلك مبكراً في مرحلة الطفولة بصورة تلقائية، إذ تتشكل الشخصية والعلاقات والسلوك تبعاً لمعرفة كل منا لنفسه، وشكله الخارجي، وأعضائه الجنسية. أما الحالة المرضية التي يطلق عليها في الطب النفسي (اضطراب الهوية الجنسية) فإنها تعني وجود اختلاف بين التكوين الجسدي التشريحي والفيزيولوجي وبين تعرف الشخص على نفسه. فبدلاً من أن يقوم الذكر بدور وسلوك يتفق مع تكوينه، نجد لديه شعوراً دائماً بعدم الارتياح وعدم القبول لدوره وشكله الخارجي (الذكوري) الذي يراه الناس، فيعد نفسه أحد أفراد الجنس الأخر رغم أن الجميع يتعرفون عليه بوصفه أحد الذكور، بشهادة كل الدلائل. ويحدث العكس بالنسبة للأنثى.

ونسبة الأشخاص من الذكور الذين يتعرفون على أنفسهم بوصفهم إناثاً، ويسعون إلى التحول إلى الجنس الأخر هي (١) في كل (٣٠) ألف، بينما تقدر نسبة الإناث من الفتيات اللواتي لديهن هذا الاضطراب الذي يعرف بـ(التحول الجنسي) Transsexualism بنسبة (١) في كل (١٠٠) ألف. وهذا تقدير تقريبي يتم من واقع إحصاء حالات الذكور والإناث الذين يقومون بعرض أنفسهم على أطباء بغرض إجراء جراحة تعرف بـ (إعادة تحديد الجنس) Reassignment Surgery Sex، وتعني تحويل الذكر جراحياً إلى أنثى عن طريق إزالة كل الأعضاء الجنسية الذكرية منه، أو تحويل الأنثى إلى ذكر جراحياً بإجراء بعض الخطوات التجميلية لتعديل شكلها ليشبه الذكور.

عوامل نفسية وراء التحويل

المجموعة الأولى من العوامل الكامنة وراء هذه الحالات الغريبة التي نرى فيها شاباً مكتمل الذكورة يرغب بشدة ويسعى للتحول إلى الجنس الآخر، أو فتاة تريد أن تكون رجلاً، هي عوامل بيولوجية تتعلق بالهرمونات الذكرية والأنثوية. مثال ذلك هو تأثير هرمون الذكورة (تستوستيرون) Testosterone على الجهاز العصبي وخلاياه، وتأثير زيادة مستويات هرمونات الأنوثة في الذكور. أما الأسباب النفسية، فمنها أن بعض الأطفال تكون ظروف تنشئتهم دافعاً لتعرفهم على أنفسهم بصورة غير واضحة. فالطفل الذكر الذي يتم تدليله بواسطة الأم، وتشجيعه على اللعب بطريقة تشبه البنات، باستخدام العرائس والدمى يكون عرضة لهذا الاضطراب. كما أن غياب الأب في هذه المرحلة قد يكون من العوامل النفسية وراء اضطراب الهوية الجنسية. وقد تبدأ علامات الحالة منذ الطفولة حين يقوم الأولاد بالاهتمام بملابس البنات وتقليدهن في اللعب، أو حين تقوم البنات بمصاحبة الذكور من الأطفال واللعب مثلهم وتقليدهم. وقد تكون البداية كثرة ارتداء ملابس الجنس الآخر، ثم تتطور الفكرة المرضية إلى رغبة في التحول.

ومسألة التحول إلى الجنس الآخر موضوع معقد يختلف تماماً عن الشذوذ الجنسي أو الجنسية المثلية، ويختلف عما يعرف بـ(الجنس الثالث) الذي يتم فيه التشبه بالجنس الآخر دون وجود رغبة في التحول. ففي حالة التحول الجنسي يكون التمسك بفكرة التحول من ذكر إلى أنثى أو من أنثى إلى ذكر يقين لا يتغير مهما كانت الضغوط الخارجية من الأهل الذين عادة ما يصدمهم هذا الأمر حين يشعرون بانها مسألة جادة وليست مجرد فكرة بسيطة يمكن التخلي عنها بالحوار أو الإقناع.

المشكلة والعلاج

إن هذه الحالات يجب تقويمها جيداً والبحث عن أسباب أخرى لها. فقد يكون سبب الحالة ليس اضطراب الهوية بل نتيجة خلل وتداخل في الصفات الجنسية مثل اضطراب الكروموسومات، أو وجود أعضاء مختلطة نتيجة عيوب خلقية، أو تشبه بالجنس الآخر دون رغبة في التحول، وكل هذه الحالات يمكن علاجها بأساليب مختلفة. كما يجب أن نذكر هنا أن مسألة الجراحة لإعادة تحديد الجنس هي موضوع جاد يجب دراسته قبل اللجوء إليه، لأن النتيجة في النهاية ليست سوى حالة مشوهة لرجل أو امرأة غير مكتملة.

وهناك الكثير من الصعوبات النفسية والأخلاقية والدينية والطبية التي تواجه عملية علاج هؤلاء المرضى، منها صعوبة تحقيق ما يريدونه من تحول إلى الجنس الآخر، وعدم قبول الآخرين لما يحدث، مما يعرضهم لمعاناة هائلة تؤثر في حياتهم وتحولها إلى جحيم لا يحتمل، دون أن يتعاطف معهم أحد أو يتفهم مشكلتهم حتى أقرب الناس إليهم.

ويتم العلاج عن طريق تخفيف حالة القلق والاكتئاب التي يعانيها المريض باستخدام الوسائل النفسية في العلاج. ويجب أن يتجه العلاج إلى الأسرة أيضاً، لأن الأب والأم والأخوة يتأثرون في العادة بهذه الحالة الغريبة التي تمثل وصمة خطرة لديهم. أما الجراحة التي يطلق عليها (إعادة تحديد الجنس) فإن بعض الحالات تحقق التوافق مع الوضع الجديد للحالة بعد التحول بنسبة (٧٠)٪ من الذين يتحولون من ذكور إلى إناث، و (٨٠)٪ من الذين يتحولون من إناث إلى ذكور. ويكتفي بعضهم بتناول الهرمونات لتحقيق الشكل الخارجي الذي يرغبون فيه. ومن القواعد التي تطبق في بعض البلدان التي تجرى فيها هذه الجراحة، أن يقوم المريض بارتداء ملابس الجنس الآخر والقيام بدوره مدة عام كامل قبل أن يتم إجراء الجراحة التي لا يمكن تصحيح نتائجها. وجدير بالذكر أن نسبة (٢)٪ من هؤلاء الذين يقومون بإجراء الجراحة ويتحولون إلى الجنس الجديد لا يمكنهم التوافق ويصابون بالإحباط والاكتئاب فيقدمون على الانتحار.

وفي النهاية، ينبغي تأكيد ضرورة الاهتمام بالحالات الخاصة بهذا الموضوع النفسي الجاد في مجتمعاتنا، والعناية بجوانبه الطبية والأخلاقية والبدنية والنفسية، لأن تركها بغير ضوابط يمكن أن يؤدي إلى مضاعفات وخيمة.